دور التمثلات الذهنية في بناء معجم الطفل من منظور العلوم المعرفية

Rol of mental representation in construction child's lexic
Aspect of cognitive modal approach

المؤلف: الدكتورة فريدة رمضاني
جامعة لونيسي علي بالبليدة 2-
قسم اللغة العربية آدابها
كلية الآدب و اللغات
البريد الإليكتروني: tadaouli@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/06/02 تاريخ القبول:2019/09/12 تاريخ النشر: 2019/09/21

ملخص:

نروم من خلال هذا المقال الاقتراب من العلوم المعرفية التي تشتغل في عمومها على الذهن و اللغة؛ والغاية هي استثمار النتائج المتوصل إليها في تلك البحوث و الدراسات التي تأخذ بعين الاعتبار الموضوعات والقضايا المتعلقة بالأنشطة اللغوية التي تحصل عند الطفل على مستوى الدماغ و محاولة فك شفراتها على مستوى الوعي و الممارسة المعجمية؛ فلطالما كانت المقاربات المعرفية المنقذ الوحيد و الأساسي للدراسات اللسانية التي ما فتئت تفيد منها نظرا لتعدد الاختصاصات التي تتداخل مع دراسة اللغة.

و هذا البحث يتطلع إلى معرفة العمليات الذهنية التي تحرك تمثلات الطفل و تفسر آليات بناء معجمه الذي يمر عبر مختلف القنوات المعرفية بدءا بسيرورات النشاط الإدراكي وصولا إلى ذاكرة العمل التي تعد أساس بناء اللغة لدى الطفل ذلك أنها عماد آلية البيان و التواصل.

الكلمات المفتاحية: التمثلات الذهنية؛ معجم الطفل؛ العرفانية؛ الذهن؛ الإدراك.

Article Summary: We aim through this article to approach from the cognitive science works in general on the mind and language. the porpose is investment the to take into consideration to language activities which gets in the child at the brain level and try to unscrew their blades of awareness and lexical practice. This research looks foward to knoing the cognitive processes which move the child's representations and interpretation of the mechanisms of building his glossary passes through different cognitive channals started with the processes of cognitive activity down to the working memory.
Key words: Mental representations ،children's dictionary ،cognitive ،mind ،perception.

تمهيد

تشكل التمثلات الذهنية أحد المحاور الأساسية في المقاربات المعرفية وعلى رأسها العلوم اللسانية والعصبية؛ الأمر الذي جعل الباحثين يسارعون لدراسة مختلف نماذجها و نقاش فرضيات ارتباطها ببناء معجم الطفل أثناء سيرورة اكتسابه للغة؛ ويعد هذا المقال أحد اللبنات التي تروم معرفة أثر هذه التمثلات

على المستوى المعجمي وفقا لما تمليه الآليات و الأدوات التي تبنتها العلوم المعرفية التي تشتغل أساسا على العمليات الذهنية و البحث عن سبل انتظامها في البنى اللغوية.

يرجع اهتمام الباحثين في مجال الدراسات اللسانية المعاصرة بالمقاربة المعرفية إلى عهد قريب حين أبانت العلوم العصبية عن نتائج تشريح الدماغ حيث أظهرت العلاقة الوطيدة بين الذهن و اللغة و لا أدل على ذلك مما سنتناوله في هذا الموضوع الذي سيحاول توضيح أثر التمثلات الذهنية في بناء معجم الطفل و هذا ضمن إطار إشكالية أساسية تتمثل في: ما هي طبيعة العلاقة بين التمثل الذهني و بناء معجم الطفل من منظور المقاربة المعرفية ؟ و ما هي الآليات التي يشتغل عليها العقل لتكوين هذا المعجم ؟ هل تقف هذه التمثلات خلف العجز المعجمي عند الطفل في بعض الأحيان ؟ و هل التمثلات الذهنية متعددة أم واحدة ؟ و إذا كانت متعدد أيها أكثر تأثيرا في بناء معجم الطفل ؟ و للإجابة عن هذه الأسئلة و أخرى نحاول البحث عن التمثلات الذهنية و معرفة أهم الأطروحات المعرفية التي عالجت قضية التصورات في مختلف أبعادها اللسانية والسيكوعصبية وغيرها.

إن الباحث في حقل اللسانيات و علم النفس المعرفي يلاحظ ذلك التداخل العجيب الذي يربط بين هذين العلمين، حيث تجاوزا أهمية معرفة التمثلات الذهنية و علاقتها ببناء معجم الطفل إلى قضية أكثر استقطابا للدراسة و البحث؛ إنها الانشغال بالكشف عن السيرورات الداخلية التي تسهم في تطوير مجال اكتساب اللغة عند الطفل من خلال التعرف الدقيق على آليات النفاذ إلى التجربة الإدراكية التي تمارس على المستوى الداخلي للدماغ، و هذا من خلال استحضار آليات الحفظ والاسترجاع في الذاكرة البعيدة المدى التي تعمل على استدخال موضوعات العالم الخارجي إلى الذهن.

و قد حظي موضوع التمثلات الذهنية عند الطفل باهتمام منقطع النظير في الدراسات الغربية في السنوات الأخيرة ذلك أنها تمثل ظاهرة من الظواهر الإمبريقية و الفينومينولوجية في مجال علم النفس؛ إنها ذات قيمة علمية هامة في مجال علم النفس اللغوي فهي تسهم في تلاقح العلوم النفسية و اللغوية وتكاملها الإجرائي الذي ما فتئ يظهر فعاليته في جميع المجالات.

و لتحديد معالم هذه التمثلات التي تندرج ضمن المعرفة ذات الطرح الموضوعي فإنه من الضروري الحديث أولا عن دلالة المفهوم من الزاوية المعرفية التي لا يخلو منها أي إنسان مهما بلغ من القوة و الجهد، فبما أن الإنسان ذو ذهن و الذهن عنصر مشترك بين جميع البشر فإنه يفترض أن العمليات المعرفية عنده هي ذلك

العنصر الذهني المشترك المتمثل في اللغة التي تعد أحد أعقد تلك العمليات ذلك أنها:" عبارة عن رموز وعمليات خوارزمية تعالج لغة تعكس الفكر البشري؛ أي ما يقوم به من عمليات ذهنية، وتكون الرموز اللغوية تمثيلات داخلية لحقائق خارجية"[1]، و في هذا السياق سنتطرق إلى تعريف التمثلات الذهنية التي تنبني عليها لغة الطفل الذي يملك عقلا قادرا على الضفر بأي قدرة لغوية مهما كانت معقدة.

1- مفهوم التمثلات الذهنية:

التمثلات الذهنية هي أحد الموضوعات الرئيسية التي تشكل معالم العلوم النفسية المعرفية التي أولت عناية فائقة لموضوع التمثل الذي هو:" استحضار الأشياء ذهنيا و كأنها ماثلة أمام العين أو في الذهن بواسطة الرسم أو النحت أو اللغة أثناء الكلام؛ إنها عبارة عن بنية خفية حيث تعد نموذجا تفسيريا بسيطا ومنظما، له ارتباط بالمستوى المعرفي و الثقافي و الاجتماعي للفرد،"[2] إذ من المؤكد أن التمثلات ليست سوى انعكاس للبراديغم المعرفي على مستوى السلوك الفعلي داخل المجتمع.

و ما يثير الاهتمام في شأن التمثلات هو تضارب الآراء و انقسامها إلى موقفين اثنين هما: الموقف ا الأول الذي يرى أصحابه أن التمثلات لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تندرج في إطار البحوث العلمية الدقيقة، والموقف الثاني الذي يذهب أصحابه إلى عدم إمكانية الملاحظة العينية لتمثلات الذهنية الأمر الذي لا يمنع من دراستها وفق الأسس العلمية ذلك أنها تظهر من خلال السلوكات و يمكن تحليلها وفقا للمعلومات التي يتم تتبعها و معالجة مساراتها المعقدة و في ذات السياق يقول "دوني": تمتلك المعرفية القدرة على معالجة المعلومة بحسب أنماط تنظيم مختلفة،"[3] و هذا ما تأكد لنا فنحن نعتقد أن التمثل عملية معقدة تمر بمراحل مختلفة منظمة بشكل دقيق إلى غاية الوصول إلى الذاكرة البعيدة المدى التي تمثل اللبنة الأساسية في حصول التمثلات الذهنية.

كما أن التمثلات التي تعتبر حصيلة للنشاط الإنساني:" ليست شهادة على العالم، و إنما هي العالم، هي الشيء الذي بمقتضاه نعرف العالم،"[4] إن التمثل هو استحضارا لصور و الأشياء الغائبة عن أذهاننا أو هي محاكاة لما تشاهده حواسنا، و هذا الأمر لا يمكن إنكاره إذ تنطبع الأشياء التي نراها في الواقع كما هي صفاتها و أحوالها في الذهن، و قد يقول قائل أن التمثلات الذهنية تختلف باختلاف الأشخاص و نحن نقول أن الاختلاف الوحيد الذي يبرر لنا ذلك هي التأويلات اللغوية و لهذا استندت:" نظرية التمثلات الذهنية إلى فرضية معرفية، مفادها أن التمثيل الذهني المعرفي سيرورة مركبة تعتمد خلق و تعديل و دمج و تجميع

تمثيلات لتأويل الملفوظات ويفترض أن هذه التمثيلات ذات طبيعة تصورية و ليست لسانية محضة،"[5] و بهذا نستنتج أن بناء المعارف بشتى أنواعها يتم عن طريق آلية التمثل الذهني؛إذ لا يستغنى عن عملية التأويل الذي يعد أحد عناصر التصور الذهني.

و من خلال ما سبق، نعترف بأن التمثل اللغوي هو أعقد عملية ذهنية يقوم بها العقل نظرا لارتباطه بالكثير من العمليات المعرفية منها الإدراك و الذاكرة و التخيل و غيرها من العمليات الأخرى التي يقوم بها الإنسان بصفة دائمة وغير شعورية؛ و الجدير بالذكر هنا هو أن التمثلات الذهنية مرتبطة في عمومها بالمحيط الخارجي الذي يختلف من طفل لآخر و من هذا المنطلق أخذ هذا المفهوم أبعادا كثيرة من الوجهة البحثية حيث أصبح التمثل من منظور العلوم النفسية المعرفية عنصرا يختلف باختلاف توجهات أصحابه.

2-التمثلات الذهنية في العلوم المعرفية:

يعد موضوع التمثلات الذهنية أهم انشغالات الباحثين في حقل العلوم المعرفية حيث يهتم هؤلاء بسيرورة الأنشطة الذهنية ويعملون على معالجتها من خلال استثمار المعلومات التي توصلوا إليها في دراساتهم عن العقل و تعد بحوث "بالدي" أبرزها فحسب اطلاعنا على ما ورد في كتابه فإنه يسعى لحث الدارسين على ضرورة الاتجاه نحو البحث عن السيرورات المعرفية و معالجتها بهدف إيجاد سلوكات فعلية[6] و هذا لا يحصل إلا باستخدام المعلومات التي يتم معالجتها على مستوى الدماغ و عليه فمن الضروري الاهتمام بالعلوم المعرفية في جميع التخصصات لا سيما العلوم اللغوية.

و نحن نعتقد أن تحديد الملامح الأساسية للتمثلات الذهنية لا يمكن ضبطه و لا رسم أطره إلا من خلال العلم و الإحاطة بالدراسات اللغوية العرفانية التي يتزايد الاهتمام بها يوما بعد يوم، وقد ثبت أهميتها في معرفة طبيعة النشاط الذهني لدى الأطفال حيث تحددت مهامها في العمل على فهم طبيعة تمثلات الطفل الذهنية و كيفية بنائها وتخزينها واسترجاعها؛ كما لا يخفى أن العلوم المعرفية قد حققت إنجازات عظيمة ولعل أهمها ما جاء به "جون بياجي" في علم النفس المعرفي حيث حاول الوصول إلى معرفة آليات تكوين مثل هذه التمثلات و علاقتها بالصور الذهنية.

و فيما يخص أهمية العلوم المعرفية فلا شك أن حنكة الدارسين في العلوم العصبية هي ما أفرز تطور هذا الحقل المعرفي الجديد الذي أثبت نجاعته في العديد من الميادين لا سيما العلوم اللغوية التي أظهرت بدورها قيمة دراسة اللغة و ما يتعلق بها من خلال التجريب الفيزيقي قبل الافتراضي مع العلم أن التمثلات الذهنية تدخل في حيز أولوياتها البحثية التي توصلت فيها إلى أنها هي في الأصل عمليات نورولوجية متصفة ببعض الخصائص المتعلقة بالإدراك الحسي والذاكرة البعيدة المدى فالأول يعمل من خلال مشاهداتنا للأشياء ثم إدراك حالاتها التي تشكل العالم المرئي أما الثانية فتتمثل في سيرورة تخزين المعلومات المدركة المنتقاة من

العالم الخارجي لتمثيل الذهني، و هذا تأكيد آخر على التكامل المعرفي الحاصل بين العلوم المعرفية و العلوم اللغوية.

و لم يقتصر الأمر على تأثير العرفانية في بعض المسائل اللغوية و حسب بل تعدت ذلك إلى التأثير العصبي النورولوجي؛ فقد سجلت العلوم المعرفية ثورة هائلة أثرت في الكثير من المجالات و هذا بفضل الاكتشافات الأخيرة في مجال دراسة الدماغ من خلال اكتشاف أجهزة دقيقة تعمل على إظهار النشاط اللغوي بوساطة أجهزة متطورة منها جهاز الرنين المغناطيسي و جهاز التصوير و المسح المخي و هي أجهزة تبين مدى التقدم الحاصل في العلوم العصبية و المعرفية.

3-أنواع التمثلات الذهنية:

أ- التمثلات الفونولوجية:

التمثلات الفونولوجية هي عبارة عن تمثلات ذهنية للحروف المكتوبة التي تتشكل عند الطفل في المراحل الأولى من تعلم اللغة حيث تتدرج إلى أن يظهر لديه ما يسمى بالميتافونولوجيا التي عادة ما تتطور بعد سن السادسة و ذلك لأن الوحدات الفونيمية التي يتم تمثيلها تكون مجردة في بادئ الأمر ثم يتم التعود عليها من خلال ممارسة القراءة و الكتابة.

و عادة لا يمكن الحديث عن تعلم مهارتي القراءة و الكتابة دون الرجوع إلى مفهوم التمثلات الفونولوجية حيث يقوم الطفل باستخدام الذاكرة الصورية للتعرف على الكلمات المكتوبة الأمر الذي يعمل على تطوير معجمه الذهني و يتم ذلك بصفة تدريجية و مستمرة، و لهذا يرى الكثير من الدارسين أن التمثيل الفونولوجي يمكن أن يتخذ للكلمات المخزنة في معجم الطفل واحدا من أشكال عدة.

فقد تتضمن الكلمات وحدات صوتية أو فونيمية أو مقاطع منفردة، و قد تتمثل في كلمات أو عبارات قصيرة و تامة؛ و مع أن التمثلات الفونولوجية عند الطفل تبدأ بإضافة المزيد من المعلومات الصوتية و الفونيمية المفردة إلا أن قدرته على الوصول لهذه المعلومات قد لا تتطور قبل سن الخامسة أو بعد ذلك؛ و هذا ما توصلت إليه بعض البحوث العلمية حول إدراك الطفل للغة إذ ترى: "أن هناك تغيرا تدريجيا في الإشارات الفيزيائية التي تستخدم لاتخاذ قرارات فونولوجية وأنه كلما ازدادت خبرة الأطفال في لغتهم الأم فإنهم يصبحون أكثر حساسية تجاه البنية الصوتية و في دراسة أحدث بين "نترويز" أن هذا التغير مرتبط بتطور الوعي الفونيمي لدى الأطفال و يبدو أن التعرض المبكر للقراءة إضافة للتغيرات التطورية في إدراك الكلام يسهمان معا في قدرة الأطفال على تمثيل الكلام في وحدات فونيمية منفردة،"[7] و نعتقد أن عملية الوعي الصوتي عند الطفل غير مرتبط باللغة الأم بل بأي لغة يتعلمها الطفل من المحيط الاجتماعي على اعتبار أن الطفل يمكن أن يتعلم الكثير من اللغات في مرحلة الاكتساب اللغوي و هذا ما تؤكده الدراسات الحديثة، وعليه فإن الجانب الفونولوجي يبقى في رأينا مسألة في غاية الأهمية ذلك أنها تثير الكثير التساؤلات التي ينبغي الكشف عنها من خلال البحث العلمي العرفاني.

إذا الدور الذي تقوم به التمثلات الفونولوجية يتمثل في التعرف على الكلمات التي تكون مخزنة في الذاكرة و التي تبدأ في النمو عند الطفل في المراحل الأولى من عمره إلى غاية النطق ببعض الكلمات من لغته الأم حيث تتطور بالممارسة و هذا لا يحدث إلا بالنمو الفونولوجي الذي يؤثر بدوره على النمو المعجمي الحاصل على مستويين:" مستوى عدد الكلمات التي يعرفها الطفل و مستوى الدلالات المختلفة لكل كلمة و توجد بالنسبة لكل من هذين المستويين فروقات كبيرة بين الأطفال و ذلك بحسب الاهتمام الذي يولونه للغة و الوسط الذي يكبرون فيه و مهاراتهم اللغوية"[8]، و بهذا يتبين لنا أن التمثلات الفونولوجية ليست منفصلة عن التمثلات الأخرى خاصة ما تعلق منها بالمعجم، و لذلك من الغرابة أن نجد بعض الدراسات تحاول الفصل بين هذين المستويين اللغويين المتكاملين.

ب-التمثلات المورفولوجية:

رغم الثورة المعرفية الكبيرة التي حصلت في مجال دراسة اللغة و الذهن إلا أن محاولات الكشف عن التمثلات المورفولوجية لا يزال من القضايا العالقة في ميدان البحث؛ ذلك أن العديد من الأسئلة التي لم نتوصل بعد إلى معرفتها مثل كيف يحصل التمثل المورفولوجي في الذهن و كيف يتم نفاذه إلى المعجم الذهني عند الطفل.

فنحن نعتقد أن التمثلات المورفولوجية هي من المعطيات اللسانية الضرورية لتشكيل معجم الطفل لأنها تفرض شكلا صرفيا معينا أكثر تعقيدا من التمثلات الذهنية الأخرى؛ ذلك أن عملية تخزين المفردات في الذهن يحتاج إلى معالجة بنياتها و فهم وظائفها ثم العمل على استدخالها إلى الذاكرة البعيدة المدى لتتحول إلى تمثل معجمي.

إن الحديث عن التمثلات المورفولوجية يعود بنا إلى البحث عن حدود الظاهرة الصرفية و علاقتها بالمستويات اللغوية الأخرى؛ فمع العلم أن المستوى المورفولوجي يعنى بالخصائص الصورية لبناء الكلمات والوصول إلى تحديد ما يمكن تسميته بالموضوعات الصرفية (morphological objects) إلا أن النقاش لا يزال دائرا حول وجود مكون صرفي مستقل أو عدم وجوده و امتصاص التركيب من جهة و الفونولوجيا من جهة أخرى.[9] إن المكون الصرفي و إن كان منفصلا من حيث الظاهر عن المكونات الأخرى إلا أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال عزله عنها فهو من جهة يشكل عنصرا قائما بذاته و من جهة أخرى هو تابع لغيره.

إن البت في ماهية التمثلات المورفولوجية يحتاج إلى حسم إشكالية لسانية متمثلة في ضرورة توضيح مشكلة طبيعة الكلمات و خصوصية تمثيلاتها الذهنية: و واضح أن هذا التشتت ناتج بالأساس عن كون ماهية الكلمة متعددة الأبعاد و الجوانب فالكلمة ذات متميزة بملامحها الصرفية و التركيبية و الدلالية والمعجمية و الصواتية، إلخ. و من أجل رصد هذه السمات و هذا التميز، تمددت النظريات و المقاييس للفصل بين ما يمكن معالجته في التركيب أو المعجم أو الصرافة أو الصواتة، مدرجة معالجة الكلمة داخل هذا المكون أو ذاك.

فمن اللغويين من اعتبر معالجة الكلمة، بما في ذلك مختلف قواعد تكوينها، من محض اختصاص المكون المعجمي، و منهم من استدل على تركيبة هذه القواعد و فريق ثالث أنكر أن تكون ضوابط البناء من الصنف الأول أو الثاني، بل إنه دافع عن طبيعتها الصرفية، و هناك من فضل الحديث عن البنية الصرفية التركيبية لأن فيها تتحقق:" كل المعلومات المجردة الواردة في مستوى البنية التحتية، كالمخصصات مثلا، في شكل صرفات أو غيرها. و هذا ما يؤكد وفاء النحو الوظيفي "لمبدأ الوظيفة" القاضي بالتمثيل للمعلومات الدلالية-التداولية في مستوى البنية التحتية، و بالتمثيل للمعلومات الصرفية التركيبية في مستوى البنية السطحية، واعتبار الجانب الصرفي التركيبي مجرد انعكاس صوري لما هو دلالي تداولي، يختلف من لغة إلى أخرى"[10] ،والأكيد أن هذه الظاهرة موجودة في كل اللغات البشرية إذ لا يمكن إنكار و ظيفة التمثلات الدلالية التداولية و ارتباطها الشديد بالجانب الشكلي الصوري.

و لما كان من شبه المستحيل فصل التمثلات الذهنية عن مختلف المستويات اللغوية فقد اقتضى الأمر اعتبار البنية الصرفية-التركيبية من أوثق العلاقات، و عليه فإن التمثلات:" تتخذ هذه البنية خرج البنية الوظيفية دخلا لها، فتسند فيها جملة من القواعد، تسمى قواعد التعبير، فتحقق المعلومات الدلالية والتداولية، الواردة من البنية التحتية في صورة مجردة، تحقيقا فعليا يحتاج إلى انطلاق فيما بعد" و لأن التراكيب لا يمكن فصلها البتة عن الصرف و غيرها من المكونات الأخرى فقد تم صياغة مجموعة من القواعد التي تمكننا من معرفة هذه العلاقة و هي تتكون من خمس مجموعات متمثلة في قواعد صياغة المحمول، وقواعد صياغة الحدود، و قواعد إدماج المعلقات و مؤشر القوة الإنجازية، و قواعد الموقعة التي ترصد ترتيب مكونات الجملة و قواعد إسناد النبر و التنغيم و يمكن توضيحها في الشكل التالي:[11]

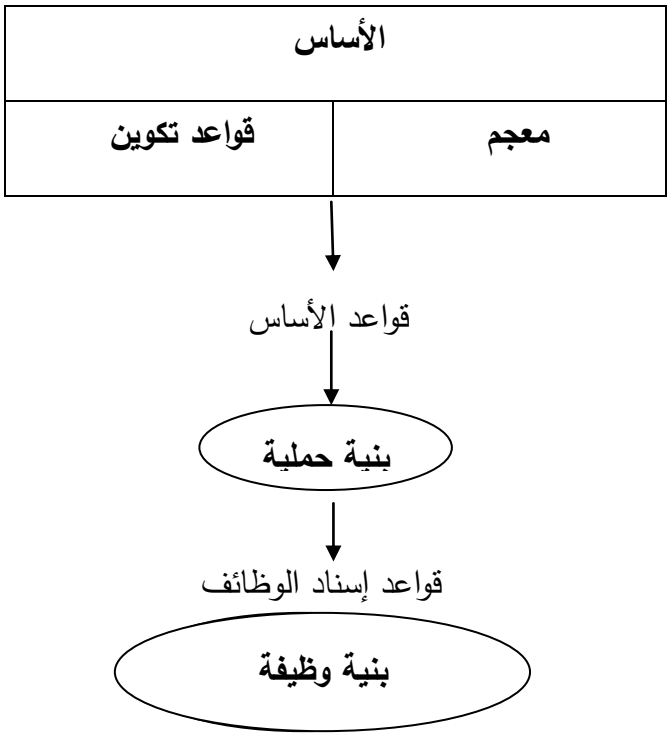

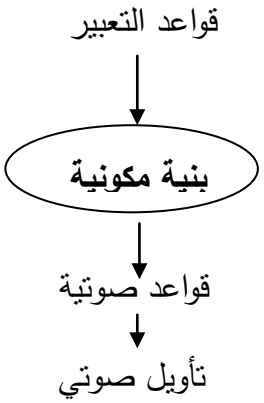

و بموازاة مع هذا، يدور نقاش حول استقلال الصرافة أو عدم استقلالها عن التركيب و الصواتة، أو عن المعجم، و الذين يسلمون باستقلالية الصرافة لا يتفقون دائما حول مجالها." [12] و قد يوحي لنا هذا الكلام ببعض الحقيقة المتمثلة في أن المكون الصرفي يضطلع بعملية البناء التي هي جزء لا يتجزء من التركيب و المعجم، و إن لم يقر الاتجاه الذي يرى باستقلالية هذا المكون و:" ينكر أن يكون الصرف جزءا من المعجم، أو أن تكون القواعد الصرفية مجرد احتساب لما يتكرر في المداخل المعجمية التامة التخصيص- بل إن دور القواعد الصرفية، في هذا التصور لا يختلف جذريا من دور القواعد التركيبية" [13] التي ينادي بعضهم لاعتبارها ذوات ذرية للذوات الصرفية أو الكلمات(syntaxic atomicity of words) :" أي أن التركيب لا يمكن أن يحلل إلى الذوات الصرفية، كما أنهم خصوا المعجم بما يثبت ويخزن، و أنكروا أن تكون الإنتاجية (productivity) أو عدمها، مقياسا فاصلا بين ما هو ضمن نسق القواعد، و ما هو ضمن المعجم"[14]،و الحقيقة أن مسألة التصاق الصرف بالتركيب لا تزال تطرح في العديد من البحوث اللغوية ويبقى البت في صدق نفاذ تلك الذوات إلى المعجم الذهني قضية عرفانية بالدرجة الأولى إذ لها علاقة مع الذاكرة الدلالية التي لا تزال قيد البحث.

و مهما يكن من الأمر فإن التمثلات المورفولوجية هي تمثل لبناء الكلمات الصرفية التي تخضع للتركيب والمعجم معا و إن لم يكن بالدرجة نفسها، و نحن لا نتبنى هذا الرأي أو ذاك لأن المسألة لا تزال قيد الدراسة و لا تزال هذه الآراء مجرد فرضيات علمية قد يثبت صدقها أو يظهر تفنيدها، و يبقى حل القضية مهمة مشتركة بين اللسانيات و مجال العلوم العصبية.

ج- التمثلات التركيبية الدلالية:

تحاول العديد من المقاربات المعرفية إدماج التمثلات التركيبية و التمثلات الدلالية و قد انطلقت في ذلك من معطيات مؤسسة على النماذج الجديدة التي أعقبت نظرية "تشومسكي" المعروفة بالنموذج المعيار(Standard Modèle) و التي يمكننا تمثيلها فيما يلي:[15]

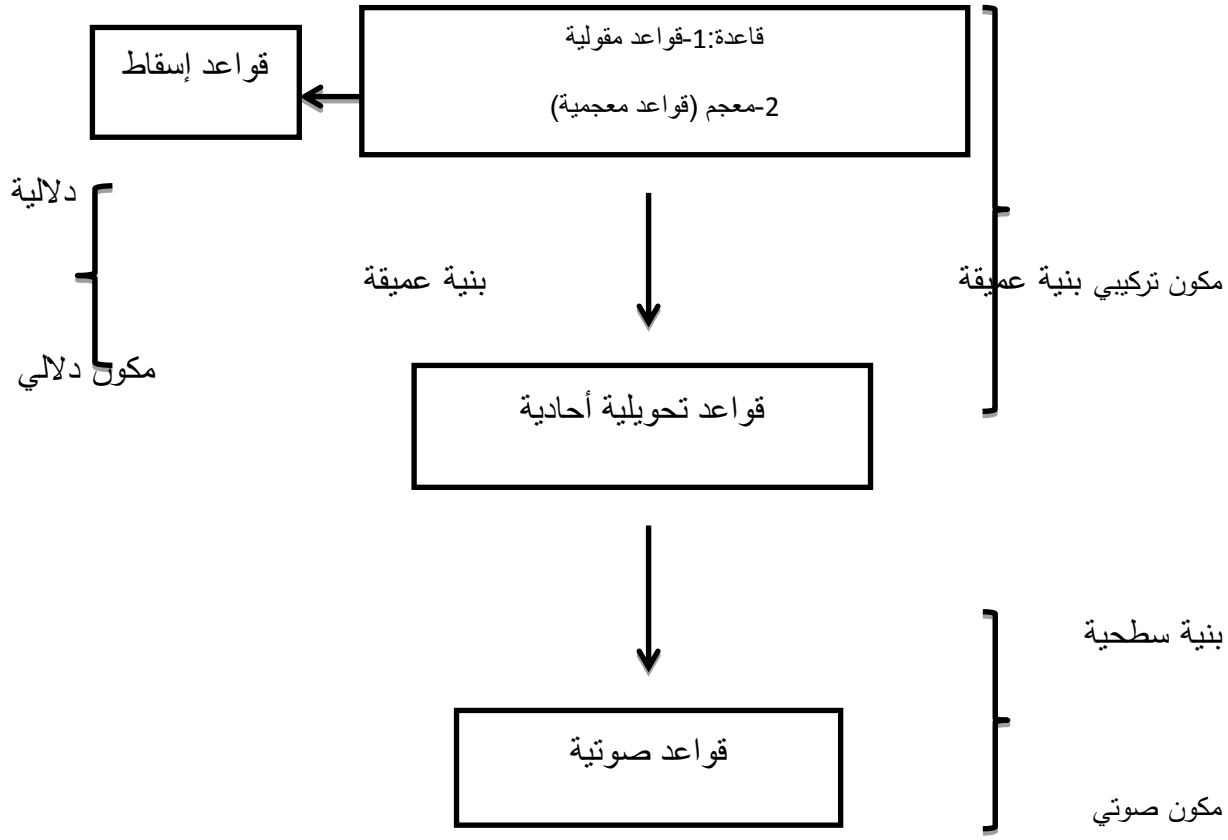

إن النموذج أعلاه يوضح المكون الدلالي الذي أغفله "تشومسكي" حتى بعد تداركه إياه في نظرية المعيار الموسعة(Extended Standard Theory) ؛ و هو نموذج قدمه كل من "ليكوف" و "روس"و "بوسطل" حيث أعاد هؤلاء النظر في وجود مستوى للبنية التركيبية غير المستوى السطحي و هو افتراض:" يجعل من التمثيل الدلالي والتركيب "العميق" مستوى واحدا سمي بالتركيب الدلالي أو (السيمانتاكس semantax)."[16]

و بغض النظر عما تفترضه النظرية التحويلية من استقلالية المكون التركيبي عن المكون الدلالي فإن نظرية التمثلات الذهنية تقر بأن:" معرفة المتكلم للغة ممثلة ذهنيا في شكل بنى من نوع خاص و لكن هذه البنى المعرفية الباطنية لا يمكن تمثيلها بصفة لائقة في النماذج التحويلية، كما أثبتت ذلك عدة دراسات لسانية و نفسية و رياضية،"[17] و الواقع أن نتائج التجارب الميدانية قد أبانت عن ائتلاف المكونين التركيبي والدلالي في بناء المعجم الذهني عند الطفل، فحسب الفرضيات التجريبية التي تقدم بها "موريس ماس" خلصت إلى نتيجة مفادها:" أن الطفل تكون لديه تمثلات حول الجملة و له القدرة على التفكير فيها و في مضامينها و مكوناتها، لذلك يجب أن تهتم البيداغوجيا الحديثة بهذه التمثلات و تكشف عن مضامينها ومصادرها ومراحلها، و أن تنظر إلى الجملة نظرة شمولية، تأخذ بعين الاعتبار المظاهر الدلالية و التداولية

والتركيبية و الصرفية، و ذلك من خلال ما تقترحه من طرائق و مناهج و برامج تعليمية"[18]، و كل هذا يصب في مصلحة المتعلمين الذين تقدم لهم الظواهر اللغوية و كأنها منعزلة عن بعضها في حين أن ما توصلنا إليه من خلال هذا البحث أن كل المستويات اللغوية متصلة غير منفصلة و هذا في الكثير من المواضع، وما ينبغي أن تعمل به المناهج التعليمية هو الكف عن عزل المظهر التركيبي عن الدلالي و التداولي عن التركيبي إلى غير ذلك.

د- التمثلات الاجتماعية:

تعد التمثلات الاجتماعية من أبرز القضايا التي اهتم بها علم النفس الاجتماعي في الثمانينيات من القرن الماضي و قد أثرت في العديد من العلوم المعرفية و هي ترتكز على التفاعل و التواصل؛ إنها سلسلة من النشاطات التي يمارسها الفرد في المجتمع وهي شكل من الأشكال العرفانية التي تشترك فيها الجماعة، فالتمثل هو صورة ذهنية للمحيط الذي نعيش فيه، و لذلك يقول "كلوني":" إن التمثلات الفردية هي عبارة عن سيرورة بواسطتها يتحكم الفكر البشري في محيطه"[19] و بذلك تكون التمثلات عبارة عن تفسيرات معرفية و إيديولوجية للأشياء و الأشخاص و العالم الخارجي و يرى "دونيس جودلي" ضرورة دراسة التمثلات الاجتماعية باعتبارها عناصر عاطفية و ذهنية و اجتماعية في الوقت ذاته [20] لأن الفرد لا ينفصل مطلقا عن المحيط الذي يعيش فيه فهو يدرك الظواهر و الأمور التي حوله؛ و عليه فالفرد بحاجة إلى معرفة العالم الذي يحيط به ليستطيع التعامل معه و مواجهة المشاكل التي تعترضه.

4-بناء المعجم الذهني عند الطفل وآليات اشتغاله:

لا شك أن الطفل يملك جهازا لغويا يمكنه من التفاعل مع المواقف و الأحداث الموجودة في العالم الخارجي و هذا ما أثبته "تشومسكي" في دراساته و سماه: "بجهاز اكتساب اللغة"" (LAD) (Language Acquisition Device)؛ و الأكيد أن الطفل أثناء اكتسابه للغة يمر بمراحل نمائية مختلفة ليصل إلى تكوين رصيد معجمي يجعله قادرا على التعبير بكل طلاقة وعفوية و هذا بفضل التمثلات التي تشكل ما يطلق عليه المعجم الذهني.

و تعود فكرة المعجم الذهني إلى عالمة النفس المعرفي "آن تريسمان" "Anne Treisman" حيث ابتكرت هذا المصطلح عام 1960 و هو عبارة عن:" نظام تخزين مركزي يستعمل للحفاظ على مختلف أنواع المعلومات (الصوتية و الإملائية و كذا الدلالية و التركيبية) في ذاكرة طويلة الأجل."[21] و ذلك بطريقة منظمة و مضبوطة وفق علاقات ذهنية معقدة تشبه إلى حد ما البيانات الحاسوبية؛ كما أن هذا المعجم هو عبارة عن لائحة من المداخل المعجمية و المقصود بها المعلومات التي ترتبط بالشكل و المحتوى و التي تسهم في إدراك الوحدات اللغوية و فهمها و استعمالها؛ فاللغة تعتبر مجموعة لا متناهية من المزاوجات بين الأصوات و المعاني، و لا يمكن وضع حدود لمعرفتنا بها إلا من خلال تمثيلها بواسطة نسق متناه من القواعد،

باستطاعته تحديد خصائص هذا العدد اللامحدود من المتواليات اللغوية التي يستطيع الطفل بناءها انطلاقا من اتصاله بعدد محدود من العينات اللغوية و تعميمها على معطيات لغوية مشابهة.[22]

يتم بناء المعجم الذهني عند الطفل أثناء مرحلة اكتسابه للغة الأم عن طريق تخزينه للمعلومات عبر الحواس المختلفة و التي يقوم باسترجاعها بسرعة و سهولة تامة و هذا إن دل فإنما يدل على أن معجم الطفل منظم بطريقة تراتبية تسهل له النفاذ إلى الكلمات و دلالاتها وفق ما يقتضيه السياق اللغوي الذي يتم فيه التواصل و من هذا المنطلق يتبين لنا أن المعجم الداخلي يمر بسيرورات معرفية و إجرائية دقيقة لا يمكن معرفتها إلا عن طريق الدراسة العلمية التجريبية و هذا ما قامت به البحوث العلمية في مجال العلوم المعرفية التي كان هدفها الكشف عن علاقة التمثلات الذهنية ببناء معجم الطفل.

إن مسألة بناء المعجم الذهني عند الطفل لا تزال تطرح العديد من التساؤلات في البحوث الغربية والعربية على حد سواء، حيث يزيد إصرار الدارسين في هذا المجال البحث عن كيفية بناء معجم الطفل وعن آليات اشتغاله و عن العناصر اللغوية التي تسهم في بنائه، و عليه مثل هذه الانشغالات البحثية التي تطرح أكثر من إشكالية؛ تحيلنا في حقيقة الأمر إلى التساؤل عن طبيعة معجم الطفل الذهني، و استنادا لما تقدمت به النظريات اللغوية في هذا الصدد فإنها ترى أن التمثيل الصوري للألفاظ الماثلة في المعجم الذهني عند مستعملي اللغة مرتبط بوشائج قوية مع النحو و هذا ما تجلى في أبحاث اللساني "سيمون ديك"؛ إذ يتم بناء المعجم:" بوساطة قواعد الأساس، حيث ينتقي المتكلم مفردة لغوية من معجمه الذهني، تعد محمول الواقعة [23] المروم التعبير عنها، فيمثل لها في شكل "إطار حملي نووي"، يعتبر بمثابة تمثيل أو بنية افتراضية لهذه المفردة اللغوية، سواء كانت هذه المفردة من المفردات الأصول المخزنة في معجمه الذهني ذلك، أو من المفردات المشتقة الناتجة عن تطبيق قواعد تكوين المحمولات و الحدود"[24] و عليه فإن الأنشطة الذهنية تؤثر في بناء التمثلات الذهنية في معجم الطفل.

5-أثر التمثلات الذهنية في بناء معجم الطفل وفق النموذج المعرفي:

لقد أثارت قضية التمثلات الذهنية العديد من النقاشات العلمية في العلوم المعرفية خاصة فيما يتعلق بأثرها في بناء المعجم الداخلي للطفل و لمعرفة طبيعة الاختلافات حول المسألة سنعرض هذين النموذجين المعرفيين:

أ-نموذج التمثلات من المنظور الإدراكي:

لقد عالج العلماء المتخصصون في العلوم المعرفية قضية التمثلات من الوجهة العصبية و توصلوا إلى أن الأنشطة الذهنية الإدراكية ترتبط ارتباطا وثيقا بالتمثلات الدلالية و أنها غير مستقلة بذاتها- و قد ناقشنا هذه المسألة سابقا- لكن يبقى الانشغال الذي حاز على الاهتمام الأكبر هو بناء المعجم الذهني للطفل؛

ولذلك يفرق "لايكوف" بين ثالوث من المفاهيم المترابطة:" المدركات و الصور الذهنية و الخطاطة أو الصورة الخطاطة فالصورة أو الصورة الذهنية هي تمثيل المدركات من الأشياء و الأحداث تمثيلا ذهنيا أساسه الإدراك البصري أو السماعي أو اللمسي و ما إليها، و من طبيعة المدرك (مشهدا كان أو شيئا) أن يكون ثريا بالتفاصيل، فإذا كان المدرك بصريا مثلا كان فيه كل جزء من الحقل البصري مليئا بمضمون بصري، هذا المضمون متبدل بتبدل درجات التركيز التي تكون للعين في تفاصيله بما فيه من الألوان و أطيافها، و عملية الإدراك في هذه الحالة لا تقتضي مجهودا خاصا و إن كان التركيز مما يستدعي ذلك من حيث الانتباه و فرز التفاصيل و تمييزها."[25]

إن الحديث عن ميكانزمات المعالجة الإدراكية الحاصلة في الذهن عن التمثلات الذهنية و ارتباطها ببناء معجم الطفل ينطلق من معطيات التجربة اللغوية التي يعيشها و هذا ما يعتقده "ميشال دونيس" حيث يرى أن التمثل الذهني عند الطفل لا يقتصر على الاهتمام بأنساق حينية للتمثلات المرتبطة بالموضوعات أثناء غيابها، و إنما أيضا بأنساق حينية للتمثلات المرتبطة بمعالجة الإدراك لأن الاشتغال المعرفي يبدأ منذ استقبال المعلومة الإدراكية و عليه فالأنشطة الإدراكية تؤدي دورا أوليا في استقبال المعلومات و معالجتها للاحتفاظ بها قصد استعمالها لاحقا، و يبدو أن الميكانزمات التي تعالج التمثلات المصورة وطيدة الصلة بتلك التي تعالج المعطيات الإدراكية، حيث أن البحث المعاصر بحسب "دونيس" يقدم حججا مقنعة بصدد العلاقة المشتركة ما بين المعلومة الإدراكية و المعلومة التخييلية.[26]

ب-نموذج التمثلات من المنظور الفينومينولوجي:

إذا كان العرفانيون و علماء الإدراك ينظرون إلى التمثلات ابتداء من المثيرات الخارجية سواء كانت قصدية و غير قصدية فإن الفينومولوجيون و رواد الاستبطان جنحوا إلى بلورة أفكار مخالفة تماما للطرح السطحي حيث يرى أمثال "لوني" أن الشروع في بناء تصور جديد يجعل من التمثلات الذهنية عملية داخلية و يقول:" إذا كانت المعرفة تستوجب أن تكون صحيحة و مبرهن عليها بطريقة علمية، فإن مفهوم المعرفة يطابق مجموعة من المعارف و الاعتقادات بغض النظر عن صحتها أو خطئها"[27] و بهذا تصبح التمثلات الذهنية عملية غير صريحة لا يمكن اقتصارها على العالم الخارجي الأمر الذي جعل الفينومولوجيون يناهضون التمثيليين (the representationalists) فهم لا يقفون في تعريفهم بالتمثلات الذهنية عند حدود الإدراك بل يقدمون صفات و ميزات أخرى أكثر دقة من تلك و يرى هؤلاء أن المفاهيم تقوم بدور أساسي في تكوين المفاهيم التي بدورها تعمل على تشكيل التصورات و الصور الذهنية التي لا تستغني عن السيرورات الداخلية للعقل.

خاتمة:

انتهينا في هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج:

- التمثلات الذهنية ترتبط بالنشاط اللغوي بمختلف مستوياته الصوتي و الافرادي و التركيبي و التداولي.
- يتمكن الطفل من بناء معجمه الذهني انطلاقا من العمليات العرفانية التي يمارسها بشكل لا واعي فتتشكل لديه ملكة لغوية تجعله قادرا على زيادة رصيده الإفرادي بواساطة استحضار الدوال والمدلولات من ذاكرة العمل.
- تداخل العمليات المعرفية أفرز لنا تعقد فك شفرات المعرفة اللغوية التي تعمل على استدخال المفردات إلى المعجم الذهني عند الطفل.
- تندمج الأنشطة الذهنية عند الطفل بفضل التفاعل مع مختلف الأنشطة المعرفية التي تحل على مستوى المعجم.

الهوامش:

1- جورج لايكوف، مارك جونسن، تر: عبد المجيد جحفة، الاستعارات التي نحيا بها، دار توبقال، المغرب، ط2، 2009، ص 10.

2- عبد السلام عشير، الكفايات التواصلية: اللغة و تقنيات التعبير و التواصل، توب، الدار البيضاء، ط 1، 1428هـ-2007م، ص 72.

3- Denis .M., Sabah, G ,Modèles et concepts pour la science cognitive, Presses universitaires ,Grenoble , 1998, p 161.

4- باتريك شارودو، دومينيك مانغونو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، دار سيناترا، تونس، 2008، ص 488.

5- امحمد الملاخ، الزمن في اللغة العربية: بنياته التركيبية و الدلالية، دار الأمان، الرباط، ط1، 1430هـ-2009م، ص 483.

6- Baldy ,R.(2006): Représentations et développement cognitif, in Le concept de représentation en psychologie, éd Presse, Paris, p 93.

7- ألان كامري، هوغ كات، اللغة و صعوبات القراءة، تر: موسى محمد عمايرة، دار الفكر، عمان، ط1، 1436هـ-2015م، ص 27-28.

8- باتريك لومير، علم النفس المعرفي المرجعية السيكولوجية للكفايات و بيداغوجيا الإدماج، تر: عبد الكريم غريب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2011، ص 467.

9- عبد القادر الفاسي الفهري، البناء الموازي: نظرية في بناء الكلمة و بناء الجملة، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1990، ص 33.

10- مصطفى عقلي، القدرة المعجمية و آفاقها التعليمية: مقاربة لسانية وظيفية، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 1439هـ-2018م، ص 68.

11- المرجع نفسه، ص 69.

12- عبد القادر الفاسي الفهري، البناء الموازي: نظرية في بناء الكلمة و بناء الجملة، ص 37.

13- المرجع نفسه، ص 40.

14- المرجع نفسه، ص 41.

15- عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات و اللغة العربية: نماذج تركيبية و دلالية، دار توبقال، الدار البيضاء، ط3، 1993، ص 67.

16- المرجع نفسه، ص 71.

17- المرجع نفسه، ص 48.

18- Maurice Mas, et si les enfants avait une certaine idée de la phrase, Revue française de pédagogie, édition N.S, Paris, 1985 N 71, p 21-22.

19- Clenet .J, Représentations sociale, P.U.F, Paris, 1989, p 41.

20- sociologie d'aujourd'hui P U F, Paris, 1989, p41.:Jodlet Denis, les représentations sociales

21-أعده أمطوش محمد، المعجم الذهني و التصريف المعجمي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2014، ص 8.

22-بنعيسى زغبوش، الذاكرة و اللغة: مقاربة علم النفس المعرفي للذاكرة المعجمية و امتداداتها التربوية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 1429هـ-2008م، ص 106.

23-المقصود بها واقعة عمل مثل نشر الباحث مقالا، و واقعة حدث مثل كسرت الريح الزجاج، و واقعة حالة مثل خالد فرح.

24- مصطفى عقلي، القدرة المعجمية و آفاقها التعليمية: مقاربة لسانية وظيفية، ص 65.

25-الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفانية، ار محمد علي، تونس، ط1، 1431هـ-2010م، ص 165.

26-Denis. M, Image et cognition, P U F, Paris, 1998, 43.

27-Le Ny .J, Comment (se) représenter les représentations in S. Ehrlich les représentations, Ed Armand Colin, PUF, p 27.